العنوان:	البعثات العلمية بين القيروان والمشرق خلال القرن الأول
المصدر:	محاضرات ملتقى القيروان مركز علمي مسالكي بين المشرق والمغرب حتى نهاية القرن الخامس للهجرة - مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان - تونس
المؤلف الرئيسي:	المعمودي، الطاهر
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1994
مكان انعقاد المؤتمر:	القيروان ، تونس
الهيئة المسؤولة:	مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان ، تونس
الشهر:	ذو القعدة / أفريل
الصفحات:	249 - 267
رقم MD:	501582
نوع المحتوى:	بحوث المؤتمرات
قواعد المعلومات:	IslamicInfo
مواضيع:	قرن 1 هـ، تونس، مدينة القيروان، البعثات العلمية، العلماء المسلمون، الفتوحات الإسلامية، التاريخ الإسلامي، الدعوة الإسلامية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/501582

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

البعثات العلمية بين القيروان والمشرق خلال القرن الأول

د: الطاهر المعمودي

الإطار السياسي للفتوحات الأولى:

قبل الحديث عن التّيارات الثقافية التي جاءتنا من المشرق لا بدّ من الحديث عن الفتوحات الأولى لبلاد إفريقية لأن هذه الفتوحات هي التي نشرت الإسلام بين البربر وعرّفت السكان الأصليين بهذا الدّين الجديد وحفزتهم بعد ذلك للاستنادة منه عن طريق الأخذ عن التّابعين الذين أرسلوا لهذا الغرض أو عن طريق الرّحلة للأخذ عن كبار العلماء في عواصم العلم وخاصّة مدينة الرسول ﷺ.

وأول الفتوحات غزوة العبادلي السبع بقيادة عبدالله بن أبي سرح القرشي العامري[1] وسمّيت كذلك لوجود عدد من صحابة رسول الله ﷺ اسمهم عبدالله[2] وهي في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(1) الدّباغ: معالم 1:30، 31.
(2) -

والسؤال الذي يطرح في هذا المجال هو لماذا تمّ الفتح الأول في عهد عثمان مع أنّ عمرو بن العاص طلب في رسالته للخليفة عمر الإذن له لغزو إفريقية «إنّا قد بلغنا طرابلس وبينها وبين إفريقية تسعة أيام فإن رأي أمير المؤمنين أن يأذن لنا في غزوها فعلنا» فكتب إليه عمر ينهاه ويقول: «ما هي بإفريقية ولكنّها مفرّقة غادره فغدروا بها» ويعلّل بكر ابن هيثم راوي الخبر هذا النهي بقوله: وذلك أن أهلها كانوا يودون إلى ملك الرّوم شيئاً، فكانوا يغدرون به كثيراً[1] وطبيعي أن يصدر هذا الحديث عن عمر بن الخطاب لما عرف به من الترتيب والتّبصر خاصة في الإقدام على الأحداث الجليلة الخطيرة.

وعزوف عمر بن الخطاب عن غزو إفريقية لعّله راجع لهذه الأسباب:

1 ـ أنهم كانوا يترصدون أخبارها ويجمعون المعلومات عنها، فالمؤرخون يذكرون مخالفة جرجير لملك الرّوم الذي كانت إفريقية ولاية من ولاياته، وعمر بلغه هذا الخلاف فقال قولته المشهورة «إنّ أهلها كانوا يودون إلى ملك الرّوم شيئاً ثمّ يغدرون به كثيراً».

2 ـ لم يأذن عمر بالغزو لأنه لا يريد أن يجازف بالجيش في معركة غير مأمونة العواقب خاصّة وأنّ فتح برقة وطرابلس لا يكتمل بعد، برقة استسلمت صلحاً أمّا طرابلس فإنّها وإن فتحت عنوة فسرعان ما ارتّدت حالما ابتعد عنها الجيش الإسلامي فهي شبه غارة لم يترك على أثرها ابن العاص والياً ولا حامية.

3 ـ ثمّ أنّ الهجوم على جرجير وهو ما زال بمدينة قرطاج المنيعة عملية شائكة خاصّة وأنها بعيدة عن الخلافة وإمدادها بالجيش يقتضي وقتاً طويلاً لذا حوّل عمر نظره عنها نهائياً.

ولمّا ولى عثمان بن عفان الخلافة عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر

(1) البلاذري: فتّوح 316، المالكي: رياض 1.

سنة 25 هـ وولى مكانه أخاه من الرّضاعة عبدالله بن سعد بن أبي سرح الذي بدأ يهيىء للفتح بإرسال الطلائع إلى أطراف إفريقية تصيب وتغنم وبقي على ذلك حوالي ثلاث سنوات ثمّ ما لبث أن استأذن بدوره الخليفة في بدء عملية الفتح[1].

والموضوعية التاريخية تقتضي منّا أن نقف قليلاً عند اتّهام المؤرخين للخليفة عثمان أنه استأثر أخاه من الرّضاعة حينما أذن له في فتح إفريقية، في حين أنّ عمر منع عمرو بن العاص من ذلك وهو أكثر مقدرة من ابن أبي سرح.

إنّ الإذن بالفتح لا يتمّ ببساطة وإنّما هناك معطيات توفّرت فدفعت الخليفة عثمان للاهتمام جدّياً بهذا الفتح منها:

1 ـ أنه بقي يفكر في الأمر أياماً وليالي ويستخير الله عسى أن يلهمه برأي.

2 ـ استشارته وجوه الصحابة إذ أرسل في استدعائهم والاختلاء بهم.

3 ـ إجابة عثمان للأعور سعيد بن زيد في قوله والله لا نخافهم وإنّهم ليرضون أن يقرّوا في موضعهم[2]. تدلّ على إلمامه بمعطيات عسكرية جديدة منها: تشتّت الرّوم بإفريقية وضعفهم إثر عمليّة الانفصال عن الدولة البيزنطية والاطمئنان إلى أن بيزنطة لن تساعدهم في حالة الاقتحام والهجوم.

4 ـ الاتّصال بالبربر سكان الجنوب أثناء العمليات العسكرية الخاطفة فلمسوا من هذا الاتّصال أنها قبائل مستقلّة مملوءة حقداً على الرّوم ينتظرون المخلّص. وكأي الاتّفاق حصل لحماية ظهورهم عند الهجوم على سبيطلة التي أصبحت عاصمة منذ سنة 27 هـ 657 م بدلاً من قرطاج. ونتيجة هذا الاتّصال عرف العرب أيضاً الكثير عن الوضع الداخلي بإفريقية فهي مقسّمة

(1) انظر موضوع «محاولة في تحليل عملية الفتح الأولى» لمحمد الشابي في ملتقى أبي لبابة الأول بمدينة قابس 27 ـ 30 مارس 1978.

(2) طبقات أبي العرب 67.

إلى شبه دويلات وحصون وكلّ حصن له قائده.

والمالكي[1] يروي أن عبدالله بن سعد سأل عن أشراف من إفريقية من الرّوم فقيل له جرجير صاحب سبيطلة. وعرفوا أيضاً أن العاصمة الجديدة عديمة التحصين وأن جرجير منهمك في تركيز مؤسسات دولته الجديدة.

فالفرصة التي أتيحت في زمن عثمان رضي الله عنه لم تكن متاحة في زمن عمر بن الخطاب لهذا حرص على استغلالها واستعراض قصّة التفكير في غزو أفريقية من طرف عثمان رضي الله عنه تدعّم لنا الافتراضات التي قدّمناها. فقد قال المسور بن مخرمة: «خرجت من منزلي بليل طويل أريد المسجد، فإذا بعثمان في مصلّى النبي ﷺ يصلّي ثمّ قام منصرفاً ألى بيته. وقمت في وجهه فسلّمت عليه، فقال: يا مخرمة إنّي استخرت الله عزّوجلّ في ليلتي هذه في بعثة الجيوش إلى إفريقية، وقد كتب إليّ عبدالله بن سعد يخبر بجرّه المسلمين عليهم وقرب حوزهم من المسلمين... فما رأيك يا ابن مخرمة؟ فقلت: اغزهم. فقال عثمان: أستخير الله، إنّي أجمع اليوم الأكابر من أصحاب النبي ﷺ فأستشيرهم، فما أجمعوا عليه فعلته، أو ما أجمع عليه أكثرهم فعلته فكن أنت رسولي إليهم... فقال: ايت علّيا وطلحة والزبير والعبّاس بن عبد المطلب...

ومر سعيد بن زيد أبا الأعور فليحضر. قال: فجمعتهم له، فخلا بهم رجلاً رجلاً وهو في مجلسه في المسجد بعد أن صلّى الصبح[2].

وحسب رواية المسور بن مخرمة فإنّ المعارض الوحيد هو أبو الأعور سعيد بن زيد الذي احتجّ بقول عمر: لا أغزيها أحداً من المسلمين ما حملت عني الماء[3].

وهكذا وضحت الرؤيا أمام عثمان على ضوء المعلومات العسكرية أولاً

---

(1) المالكي 12:1. طبعة القاهرة.
(2) طبقات أبي العرب 65 ـ 68.
(3) نفس المصدر 67، الرياض 9:1.

واستشارة الصحابة رضي الله عنهم وهذا ما يقتضيه المنطق السياسي والعسكري.

ويصوّر لنا أبو العرب التميمي في طبقاته قضية الاستنفار الحربي في قبائل العرب لغزو إفريقية فيشير لخروج مروان بن الحكم وبشر كثير من بني أمية ومن بني أسد بن عبد العزّى: عبدالله بن الزبير في عدّة من قومه، ومن بني زهرة المسور بن مخرمة، ومن بني تميم عدّة منهم: عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، وعبد الرحمن وعاصم بن عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، وعبدالله بن عمر بن الخطاب، ومن بني سهم: عبدالله بن عمرو بن العاص والمطلب بن أبي وداعة في عدّة من بني سهم، ومن بني عامر بن لؤي: السائب بن عامر بن هشام، ويسر بن أرطأة، ومن بني هذيل نفر منهم: أبو ذئيب الشاعر[1].

وفي نقل آخر يشير أبو العرب إلى عدد تقريبي لمقاتلي كلّ قبيلة: خرج من جهينة ستمائة ومن أسلم ثلاث مائة رجل ومن مزينة ثمانمائة ومن بني شليم أربعمائة وخمسون رجلاً ومن غطفان وخزارة ومرّ سبعمائة رجل ومن بني الدئل وخمره وغفّار وعبد مناة خمسمائة رجل، وكان آخر من قدم عليه كعب بن عمرو وهم أربعمائة رجل[2] وتحدّد العدد الجملي بعشرين ألفاً[3].

ولعلّ الفسيفساء القبلية بجيش عبدالله بن أبي سرح تعطينا صورة عن الكيفية التي كانت تتكوّن بها الجيوش الإسلامية المعدّة للغزو: معطيات عسكرية دقيقة عن حالة العدوّ من الناحية النفسية والحربية حتى لا تقع المجازفة بالجيش الإسلامي كما وقع بالنسبة لعمر بن الخطاب في أعراضه عن غزو إفريقية.

استنفار للقبائل فيقبل المجاهدون عن طواعية ديدنهم نشر الدعوة

(1) أبو العرب: الطبقات 68.

(2) أبو العرب 69.

(3) نفس المصدر 70.

واتّساع رقعة الإسلام، وبعد انتهاء المهمّة يرجع كلّ أحد لقبيلته ليستأنف حياته العادية.

وما سمعنا في غزوة إفريقية عن ظهور مطامح عسكرية أو رغبات شخصية وإنّما كان المبدأ قوله عبدالله بن أبي الزبير ملّا سئل عن عدم إجابته لما نودي من قتل جرجير فأجاب: قد علم من قتله لأجله وهذا السرّ من أبرار نجاح الفتوحات الإسلامية لا يتحرّج صحابة رسول الله ﷺ من الائتمار بأوامر عبدالله ابن أبي سرح أو معاوية بن حديج. وما قال أحدهم كيف تقودني وأنا ابن عمر بن الخطاب أو ابن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم.

ولعلّ أهمّ شيء نلاحظه في الفتح الأول الذي قاده عبدالله بن سعد بن أبي سرح وجود عدد كبير من صحابة رسول الله ﷺ عدّ منهم الدباغ ستّ وعشرين[1] وروى عن كلّ واحد منهم حديثاً مسنداً تبركاً باتّصال السند بهم والرواية عنهم رضي الله عنهم[2].

وأبو العرب يسمّي من دخل إفريقية من الصحابة وكذلك من رآه ﷺ وإن لم يكن له صحبة[3].

أما المالكي فإنّه يذكر من دخل إفريقية من أصحاب النبي ﷺ ومن كان بعدهم بالسواحل والبلاد من الزهاد والعبّاد[4]. وبهذا الاعتبار يكون الدباغ المصدر الوحيد الذي استعرض بعضاً من الصحابة الذين شاركوا في الفتح الأول تحت أمرة عبدالله بن أبي سرح وأوصلهم إلى ستّ وعشرين صحابياً[5].

---

(1) وعبارته هي: ونحن نذكر من نزلها منهم معتمدين في ذلك على ما نقله ثقات الرواة، مثل: عبدالله بن وهب وعبد الرحمن بن عبدالله بن عبد الحكم ومحمد بن سحنون وأبي سعيد بن يونس وأبي العرب التميمي. معالم 1:70، تحقيق شبوح.

(2) معالم الإيمان 1:70 سبوح.

(3) طبقت أبي العرب 73.

(4) المالكي 1: نفس المصدر 1:43.

(5) انظر الدباغ 1:41. طبعة القاهرة.

وأقام ابن أبي سرح بسبيطلة في حين تجمّع الروم وكاتب بعضهم بعضاً استعداداً لقتال المسلمين وأخيراً جعلوا له جعلاً على أن يرتحل بجيشه فأجابهم لذلك بعد قبضة جعله الذي اتّفق عليه(1) بعد جمعه لمعلومات هامّة تخصّ عدوّه هي صالحة لغزوات لاحقة.

الفتح الثاني كان على يد معاوية بن خديج(2) سنة أربع وثلاثين من الهجرة في عهد عثمان بن عفان كذلك(3). وصحبه في هذا الفتح عبدالله بن الزبير وعبدالله بن عمر ابن الخطاب الذي ماتت بنية له من أم ولد مذمتها بباب سلم الآن فلما خطت القيروان اتّخذت تلك البقعة مقبرة وسميت مقبرة قريش(4). وقد شهد كلّ منهما فتح جلولاء(5) وكان مع معاوية بن خديج جبلة بن عمرو السّاعدي وأبو زمعة عبيد بن أرقم البلوي الذي مات بالقيروان. ولم يثبت أنّ أحداً مات من أصحاب رسول الله ﷺ ودفن بالمغرب سواه(6).

ومعاوية بن خديج فتح إفريقية مرّة ثانية بتكليف من الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان. خرج من مصر وهو عامل معاوية سنة خمسين وأربعين(7) ومعه عبدالله بن الزبير وجماعة من الصحابة والتابعين، وكان معه أيضاً عبد الملك بن مروان ويحيى بن الحكم والأكدر بن صماح اللخمي وخالد بن ثابت الفهمي وكريب بن أبرهة ابن الصباح حتى وصل إفريقية

---

(1) الدباغ: معالم 42:1 تحقيق سبوح.
(2) الدباغ: معالم 44:1.
(3) ويبدو أن غزوة معاوية بن خديج كانت في عهد تولى ابن أبي سرح لولاية مصر ويظهر هذا من خلال إشارة الدباغ الذي يقول:
(4) الدباغ: معالم 1:
(5) الدباغ: معالم 1.
(6) نفس المصدر 98:1 تحقيق شبّوح.
(7) يقول المالكي في رياض النفوس: الغزوة الثانية سنة أربعين 30:10.

جلولاء[1] وعليها عامل لجرجير. وبدأت الحرب بينهما فكان النصر للجيش الإسلامي[2] أما الغزوة الثالثة فقد كانت سنة خمسين[3].

وما نستنتجه من خلال هذه الغزوات أنّ الجيش الإسلامي بدأ يعرف أرض إفريقية عسكرياً لهذا كان في كلّ غزوة يستعين بمن شارك في الفتوحات الأولى كعبدالله بن الزبير الذي زار إفريقية ثلاث مرّات، المرّة الأولى مع ابن أبي سرح والمرّتان الأخريتان مع ابن خديج وعبدالله بن عمر مرّتان.

كما أن الأمويين استحدثوا طريقة جديدة وهي إرسال جماعة من أبناء هم حتى يتمرّسوا على قتال سكان هذه المناطق ويعرفوا هذه الأرض الجديدة فتصبح قضية متابعة الفتح عندهم عقيدة وهذا فعلاً ما حصل بالنسبة لعبدالملك بن مروان الذي حضر الفتح مع معاوية بن خديج وشارك في معركة جلولاء ثمّ لمّا آلت الخلافة إليه كان على دراية ومعرفة بالخطط العسكرية الصالحة لمتابعة العمليات وحتى لا يزهد في هذه الأرض الجديدة مع ما عنده من أراض شاسعة فتحتها الجيوش الإسلامية في عهد أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه.

تذكر المصادر[4] أنّ معاوية بن أبي سفيان عزل معاوية بن خديج عن مصر وأولى مسلمة بن مخلد الأنصاري الذي وجّه إلى إفريقية خالد بن ثابت الفهمي[5] وكان من التابعين. فخرج في محرّم سنة خمسين فانتهى إلى مواضع منها وأصاب غنائم كثيرة حسب عبارة الدّباغ[6].

كما أنّ المصادر تذكر ضمن الصحابة الذين دخلوا إفريقية رويفع بن

---

(1) الدباغ: معالم 1:43. ذكر الدباغ غزو جلولاء في
(2) الدباغ: معالم 1:44.
(3) الدباغ: معالم 1:44.
(4) الدباغ: معالم 1:46 تحقيق شبّوح.
(5) نفس المصدر 1:46.
(6) نفس المصدر 1:46.

ثابت ابن السكن والي معاوية بن أبي سفيان على طرابلس الذي غزا منها إفريقية سنة سبع وأربعين وانصرف من عامة[1] وذكر معه أبو محمد فضالة بن عبيد الأنصاري الأوسي الذي دخل غازياً مع رويفع في نفس السنة[2] ثمّ غزاها كذلك عقبة بن عامر الجهني[3] المتوفى سنة أربع وخمسين.

وفي هذا السياق يذكر الدّباغ[4] أنّ عقبة بن نافع غزا إفريقية سنة اثنتين وأربعين أو سنة واحد وأربعين قبل غزوة معاوية بن خديج الثانية لكنّ الولاية كانت لمعاوية بن خديج.

والذي يظهر من هذا أنّ مناوشة الرّوم كانت مستمرّة ومتواصلة وفي كلّ مرّة يغنمون الغنائم من جهة ومن ناحية أخرى كانوا يتعرّفون على الأرض ويدرسون سكان المناطق البربرية الذين كانوا يمدّون إليهم يد المساعدة ولم بجيش من هذه حزب من خلف أو قطعت عليه طرق التهويل والإعانة. وكلّ هذه الظواهر تدلّ على أن العرب الفاتحين تيقّنوا من عواطف البربر وأيقنوا أنّ الفتح في العمق يحتاج لكثير من هذه المناوشات الحربية حتى إذا قرّروا الفتح الحقيقي خلال هذه المعارك الخاطفة.

على أنه ما يجب أن يلاحظ في هذه الغزوات المتعدّدة تناقضّ تواريخها وتداخلها وهذا أمر طبيعي في أحداث لم ترو من طرف شاهد عيان.

المرحلة الثانية في الفتح هي مرحلة عقبة بن نافع الفهري الذي يذكر عنه محمد بن يوسف الوراق أنه غزا غزوته الثانية سنة ستّ وأربعين وافتتح فيها كثيراً من الحصون واختط مدينة القيروان[5].

تعتبر تجربة عقبة أطول غزوة غزاها العرب لإفريقية وذلك راجع لعدّة

(1) نفس المصدر 1:123 تحقيق شبوح.
(2) نفس المصدر 1:105.
(3) نفس المصدر 1:120.
(4) نفس المصدر 1:166.
(5) المصدر السابق 1:166.

أسباب: منها أن الجيوش الإسلامية عرفت أرض إفريقية ولم تعد تخاف الدخول للأعماق وإلاّ لمّا أقدمت على مراحل الفتح الشيء الذي لم يتحقّق في البعثات الأولى كذلك وثق القادة الفاتحون من عواطف البربر الذين كان في إمكانهم بظهور الجيش الإسلامي وهو ما لم يقع البتّة.

ومنها أنّ عقبة بن نافع دخل إفريقية ثلاث مرّات الأولى سنة واحد وأربعين فأقام بها ثلاث سنوات والثانية سنة خمسين وفيها اختط القيروان والثالثة سنة إحدى وستّين[1].

ومن خلال هذه التجارب واصل طريقه إلى باغاي[2] ثمّ تلمسان والزّاب وتاهرت وأخيراً طنجة والسّوس الأدبي والأقصى وغزوة عقبة هي مرحلة الاستقرار وبناء المدينة الدّال على أن الفتح لم يعد مناوشات وإنّما هو إرادة الإقامة والبناء الذي سبيله نشر الدّعوة وإرساء قواعد الإسلام.

وبعد ولاية عقبة تولى إفريقية أبو المهاجر دينار سنة خمس وخمسين ثمّ عقبة مرّة ثانية سنة اثنتين وستّين فزهير بن قيس البلوي سنة سبع وستين ثمّ حسان بن النعمان الغساني[3] سنة تسع وستين الذي تعتبر معاركه مع الكاهنة آخر ما خاض الجيش الإسلامي في بلاد إفريقية وعلى أثرها ساد السلام وأيقن البربر السكان الأصليين لبلاد إفريقية أنّ لا قدرة لهم على محاربة المسلمين وكأنهم بدؤوا يفهمون أسرار الدعوة الجديدة أدركوا الفرق بينها وبين بقيّة الدعوات الأخرى التي جاء بها المحتلّون السابقون.

ولعلّ من أهمّ أسباب نجاح حسّان في خطته أنه اقترب أكثر من نفوس البربر فأخرجهم مع العرب يفتحون وقسّم الغيء والأرض بينهم وبين العرب وألف قلوبهم وأحسن معاملتهم فكانت النتيجة أنّ بربر طارق بن زياد هم الذين أضافوا الأندلس إلى المملكة الإسلامية حسب عبارة

(1) الدباغ: 166:1.
(2) نفس المصدر 48:1.
(3) المعالم 46:1.

الطالبي[1].

ولعلّ السؤال الذي سيطرح في هذا المجال هو ما هو نصيب البعثات العلمية من خلال هذه الفتوحات المتعدّدة.

البعثات العلمية خلال القرن الأول:

لا أرجح أنّ البعثات الأولى للفتح الإسلامي لإفريقية كانت تخامرهم فكرة البدء في نشر الدعوة أو محاولة التأثير على البربر حتى يدخلوا في هذا الدين الجديد وإنّما كانت الأهداف العسكرية هي التي تهمّهم قبل كلّ شيء.

وكأن أرض إفريقية ضيعت فرصة الاستفادة من ستّ وعشرين صحابياً جاؤوا في غزوة عبدالله بن أبي سرح هنا بالإضافة لعدد آخر جاء مع معاوية بن خديج. ولكنّ سلطان الكلمة لا يبرز إلاّ بعد رجوع السيوف لإغمادها. حين ذلك شعر الفاتحون بالهدف الأسمى الذي من أصله كثرت الفتوحات في أرض إفريقية وهو نشر الدّعوة. وكيف سيكون نشر هذه الدّعوة؟ وهل هناك لغة مشتركة بعين على أيصال هذه الدّعوة؟ وهل هناك عقبات اعترضت الدّعاة؟

إنّ ندرة الأخبار وغموض القليل منها ميزة الفترة المبكرة من تاريخ إفريقية لهذا لا تمكننا الإجابة عن مثل هذه التساؤلات على أنّ بعض المصادر أمدّتنا بمعلومات عن هذه البعثات والتي بلغ عددها الأربع حسب هذه المصادر وهذا لا يعني أنّ المدد الديني لنشر الدّعوة الإسلامية اقتصر على هذه البعثات وإنّما على ما يبدو هناك بعثات غير رسميّة نزلت إفريقية لنشر الدّعوة الجديدة.

---

(1) الطالبي محمد: دراسات في تاريخ إفريقية وفي الحضارة الإسلامية في العصر الوسيط ص 93، 94. انظر كذلك TALBI: E.I. Tome III:249.

البعثة الأولى:

قرّرها واختار أفرادها عقبة بن نافع خلال سنة 62 أو 63[1] وهذه البعثة لم يذكرها غير ابن عذارى في قوله: «وقد كان عقبة بن نافع ترك فيهم بعض أصحابه يعلّمونهم القرآن والإسلام منهم شاكر[2] صاحب الرّباط وغيره[3]، وقد ظلّ هذا المكان يعرف برباط شاكر أو منزل شاكر ويسمّى الآن سيدي شكير، وهو رباط يقع في منتصف الطريق بين مراكش وموقادور[4].

ولعلّ أهمية هؤلاء الجماعة تتمثل في كونهم من أصحاب عقبة ويبدو أنهم من التابعين ورسالتهم هي تعليم البربر القرآن والإسلام وهذا التدرج في تعليم أصول الدين الإسلامي هو المتّبع بعد ذلك في كافة الأقطار الإسلامية، وإجماع الحواضر الإسلامية على اتّباعه دليل على نجاعته.

ومع ابن عذارى أشار لهذه البعثة الأولى عبيدالله بن صالح عندما ذكر خروج عقبة من طنجة فقال: «ونزل بموضع شاكر وترك شاكراً على ما قيل»[5].

البعثة الثانية:

اختارها لنشر الدعوة الجديدة حسّان بن النعمان الغساني في حربه الثانية ضدّ الكاهنة، فقد شعر حسّان اثر هذا الانتصار أنّ الحملات العسكرية حلولها مؤقتة لأنها انتصار عضلات أما الانتصار الحقيقي فهو الاستيلاء على

---

(1) بعثات الدعوة الإسلامية للدكتور الحبيب الهيلة في ملتقى أبي لبابة بمدينة قابس سنة 1978.

(2) شاكر هذا هو شاكر بن علي الرجراجي صاحب عقبة بن نافع وقد عرف به عبدالحي الكتاني في مجلة المغرب جوان 1936. لم نتمكن من الاطلاع على مجلة المغرب فكان النقل عن الهيلة.

(3) ابن عذارى: البيان المغرب 42:1.

(4) ليفي بروفنسال: مقدّمة نصّ جديد عن فتح العرب للمغرب لعبيدالله بن صالح ص 209.

(5) نفس المصدر السابق 220.

العقول والتأثير على العواطف والمشاعر.

ومصدر هذه البعثة الثانية هو نص عبيدالله بن صالح الذي يقول عنها: وولّى أولاد الكاهنة يفرن وبزديان كلّ واحد منهم على ستّة آلاف وترك معهم ثلاثة عشر رجلاً من علماء التابعين يعلّمون لهم القرآن وشرائع دينهم، فرجع حسّان إلى القيروان وذلك سنة اثنتين وثمانين من الهجرة[1].

بعثة محدّدة العدد من علماء التابعين ومهمّتهم تعليم القرآن وشرائع الدّين للبربر أما مكان عمل هذه البعثة فميدان المعركة الذي هو جبل أوراس حسب ابن خلدون[2] وقصر الجم بالنسبة للمالكي[3] والبكري في المسالك[4] والتجاني في الرحلة[5] وصاحب كتاب الاستبصار[6].

والمعلومات حول البعثة الثانية هي أوسع وأدق من معلومات البعثة الأولى وهذا في نظري يرجع لمقاييس النجاح في نشر الدّعوة فما حقّقته البعثة الثانية لم تحقّقه البعثة الأولى لهذا كان ذكر البعثة الثانية أشمل وأدقّ.

البعثة الثالثة:

قرّرها موسى بن نصير حين انتهائه من فتح شمالي المغرب الأقصى فيما بين سنة 90 و92 للهجرة التي يقول فيها ابن عذارى: ولمّا حمل أبو مدرك زرعه بن أبي مدرك رهائن المصامدة جمعهم موسى مع رهائن البربر الذين أخذهم من إفريقية والمغرب وكانوا على طنجة وجعل عليهم مولاه طارقاً ودخل بهم جزيرة الأندلس وترك موسى بن نصير سبعة عشر رجلاً من

---

(1) عبيدالله بن صالح: نصّ جديد 223.
(2) -
(3) -
(4) -
(5) -
(6) -

العرب يعلّمونهم القرآن وشرائع الإسلام[1].

وقد أولى المؤرخون اهتماماً خاصّاً بهذه البعثة فذكرها الرقيق القيرواني وهو أول من ذكرها.

يقول الرقيق: «ثمّ استعمل موسى بن نصير على طنجة طارق بن زياد مولاه وترك بها سبعة وعشرين رجلاً من العرب واثنين عشر ألف فارس وهي العدّة التي جعلها عليهم حسّان بن النعمان، فدخلوا الإسلام وحسن إسلامهم فتركهم موسى وانصرف بعسكره وكان في خلق عظيم وأمر العرب السبعة والعشرين الذين ترك عند طارق بن زياد أن يعلّموا البربر القرآن أو يفقهوهم في الدّين[2].

ونفس البعثة الثالثة ذكرها كذلك عبيدالله بن صالح إذ يقول: «وولّى عليهم طارق بن زياد ورجع إلى إفريقية وترك معهم سبعة عشر رجلاً من العرب يعلّمون لهم القرآن وشرائع الإسلام. وتمّ إسلام أهل المغرب الأقصى فأسلموا كلّهم أسلاماً صحيحاً الذي كانوا عليه إلى اليوم، وذلك قريب من سنة 90 من الهجرة ولم يرتدّ منهم بعد ذلك إلاّ برغواطة وكان سبب ارتدادهم صالح بن طريف الإسرائيلي[3].

وذكر أخيراً من طرف مشرقي وهو ابن خلّكان عندما قال: «وترك موسى عندهم خلقاً يسيراً من العرب لتعليم البربر القرآن وفرائض الإسلام»[4].

وما يستنتج من هذه البعثة الثالثة التوفيق الذي خالفها ممّا جعل المؤرخ عبيدالله بن صالح يؤكد بأن بربر هذه المنطقة لم يرتدوا بعد ذلك عن الإسلام ولم تشد منهم غير قبيلة واحدة.

---

(1) ابن عذارى 42:1.

(2) الرقيق القيرواني: التاريخ 69، 70.

(3) عبيدالله بن صالح: نصّ جديد ص 224.

(4) ابن خلكان: الوفيات 403:4.

غير أن الإشكالية التي تبقى مطروحة هي: كيف استطاع هذا العدد القليل من العلماء أن يقنع هذا الجمع الكثيـر من قبائل المغرب بالإسلام فيدخلوا فيه ويحسن إسلامهم وينظمون بعد ذلك للجيوش الغازية.

وعندي في هذا المجال افتراض آخر وهو لعلّ هناك بعثات أخرى جاءت بصورة فردية لتساهم في نشر هذا الدين الجديد وعدم ذكر المصادر لها لا يعني عدم وجودها[1].

ومهما كانت إشكالية الجواب فإنّ الإسلام انتشر وعمّ في الأقطار المغربية في مدّة أذهلت الباحثين وهي تتعارض مع القوانين الطبيعية لانتشار الأفكار المختلفة.

البعثة الرابعة:

هي البعثة التي أرسلها عمر بن عبد العزيز في أوائل سنة 100 هجري وهي الإرسالية الوحيدة التي ذكرها أكثر المؤرخين واشتهرت بين الباحثين المعاصرين. وسبب هذه الشهرة مكانة أفرادها في العلم والتقوى وكونها بعثة أرسله الخليفة الأموي بدمشق بخلاف البعثات الأخرى فهي بوادر قام بها قادة الفتوحات. والأمر يختلف بين بعثة كلّفت بنشر الدعوة ولهيب الحرب لا زال متأججاً، وبعثة أرسلت من طرف خليفة بعد استقرار الأوضاع وانتهاء عمليات فتح المغرب وجانب من الأندلس.

ولقد شعر عمر بن عبد العزيز وهو يخطّط لبرنامجه الإصلاحي الذي تناول جلّ ميادين سياسة السلطة المركزية أنّ نشر الإسلام في هذه الربوع لا بدّ أن يخضع لتخطيط وتصميم بعيد المدى حتى تحقّق الأهداف التي من أجلها تمّ الفتح وهو نشر الدعوة وتقريب أصول ومبادىء الإسلام لنفوس سكان المغرب حتى يرمّم النقص ويتلافى ما عسى أن يحدث عند استمرار

(1) طالبي: دراسات في تاريخ إفريقية 96.

جهل المسلمين الجدد بأمر دينهم.

وقد أورد أبو العرب خبراً يوحي بهذه المهمّة الجديدة التي ستمارسها البعثة فقد قال: «حدّثني جبلة بن صمود الصدفي عن سحنون عن معاوية الصمادحي عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم أن الخمرة كانت عند أهل إفريقية حلالاً حتى بعث عمر بن عبد العزيز هؤلاء الفقهاء فعرّفوا أنها حرّمت»[1].

ونفس الخبر يورده ابن عذارى بقوله: وكانت الخمرة بإفريقية حلالاً حتى وصل هؤلاء التابعين فبيّنوا تحريمها[2].

يعني أصبح أمر البعثة ضرورياً لاختلاط الأمر على سكان المغرب وعدم تفريقهم بين الحلال والحرام لهذا كان إطار عمل البعثة:

- دعوة البربر إلى الدين الإسلامي.
- تقريب الفقه إليهم حتى يتعلّموا أمر دينهم وعبادتهم.
- تعليمهم الحلال والحرام.

ويختصّ البلاذري بقوله: «وكتب إليهم عمر بن عبد العزيز كتباً يدعوهم بعد إلى ذلك فقرأها إسماعيل عليهم في النواحي تغلب الإسلام على المغرب[3].

فأفراد هذه البعثة العشرة نوردهم بحسب وفياتهم:

- أبو عبد الرحمن عبدالله بن يزيد المعافري الإفريقي الحبلي[4]ت سنة 100.

- إسماعيل بن عبيد الأنصاري المعروف بتاجر الله ت سنة 107[5].

---

(1) أبو العرب: طبقات 87 طبعة 2.

(2) ابن عذارى: البيان المغرب 1:48.

(3) البلاذري: الفتوح 323، 324.

(4) الرياض 1:64 عدد 30 طبعة القاهرة، معالم 1:180 طبعة القاهرة، طبقات 86.

(5) طبقات 84، 85، الرياض 1:69 عدد 32، معالم 1:191.

ـ عبد الرحمن بن رافع التنوخي ت 113[1].

ـ أبو سعيد جعثل بن هاعان ابن عمر الرعيني ثمّ القتباني ت سنة 115[2].

ـ عبدالله بن المغيرة بن أبي بردة الكناني ت سنة 123[3].

ـ طلق بن صابان الفارسي ت سنة 124[4].

ـ أبو مسعود سعد بن مسعود التجيبي ت سنة 124[5].

ـ حبّان بن أبي جبلة ت سنة 125[6].

ـ بكر بن سوادة الجذامي ت سنة 128[7].

ـ إسماعيل بن أبي المهاجر المخزومي ت سنة 132[8].

ـ موهب المعافري[9] لم يعرف تاريخ وفاته.

وهذه القائمة من التابعين الفقهاء توحي لنا باستنتاجات عدّة:

منها أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قد مدّ يده الكريمة للفقهاء فأعطاهم من تزكيته تنويهاً ومن سلطانه نفوذاً[10] وتوزيعهم في أقطار الإسلام يجعل منهم عهداً للمجتمع لا تزول بزوال الأشخاص ولا تخلّ بتزعزع روابط الحكم، وقد لاحظ عمر بن عبد العزيز كذلك أن انتشار الإسلام في المغرب التي لا تدفع عنه المتوقعات المنتظرة ولا تفيه غائلة العوادي.

---

(1) طبقات 86، الرياض 1:72 عدد 33، معالم 1:198.

(2) طبقات 84، الرياض 1:75 عدد 37، معالم 1:202.

(3) طبقات 88، الرياض 1:80 عدد 44، معالم 1:210.

(4) طبقات 86، الرياض 1:76 عدد 39، معالم 1:215.

(5) طبقات 87، الرياض 1:66 عدد 31، معالم 1:184.

(6) طبقات 84، الرياض 1:73 عدد 35، معالم 1:209.

(7) طبقات 86، الرياض 1:74 عدد 73، معالم 1:211.

(8) الرياض 1:75 عدد 38، معالم 1:203.

(9) طبقات 84، الرياض 1:73 عدد 34.

(10) الفاضل ابن عاشور: أعلام الفكر السامي 10.

ومنها أن البعثة كان ضمن أفرادها والي لإفريقية والقيروان وهو إسماعيل بن عبيدالله ابن أبي المهاجر دينار المخزومي كانت ولايته سنة 718/99 والذي وضحه الطبري بأنه خير وال وخير أمير[1] وضمن أفرادها أبو الجهم عبد الرحمن بن رافع التنوخي أول من استقضي بالقيروان بعد بنائها وكان ذلك سنة 80 هجري في ولاية موسى بن نصير[2].

وعبدالله بن المغيرة بن أبي بردة الكناني الذي كان مقيماً من قبل بالقيروان وسافر ضمن وفد بعثه موسى بن نصير إلى أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك فتكلّمت البعثة في تزكية موسى بن نصير وسكت عبدالله وكان عمر بن عبدالعزيز حاضراً فعظم في عينه فلمّا ولي الخلافة ولاه قضاء إفريقية وعيّنه ضمن بعثة العشرة[3] وتعيين هؤلاء الثلاثة ضمن بعثة العشرة هو تأكيد من طرف عمر بن عبد العزيز على الامتزاج وعدم الفصل بين المهمتين الإدارية وما تتطلبه من مسؤوليات والعلمية من نشر الدعوة وتثقيف البربر وتعليمهم القرآن ومبادى الدين الحنيف.

كما أن أفراد هذه البعثة اختيروا على أساس التقوى والصلاح والعلم والتفقه في الدين دون اعتبار الانتماء ويقول في هذا الشأن شيخنا المرحوم محمد الفاضل ابن عاشور «ونحن إذا تأملنا في هذا العقد الثمين: تبين لنا أن فوائده قد جمعت من أنساب مختلفة من المهاجرين والأنصار، ومن العبنانية والفحطانية، ومن القريح والموالي ومن العرب فلم يجمعهم إلاّ وصف الفقه في الدين»[4].

على أن بعثة الفقهاء العشرة كانوا يؤمنون أن تأسيس المساجد هو الجيز المكاني الملائم لبقاء الاتّصال الروحي بين المسلمين وهو نقطة انطلاق

(1)

(2) معالم : 1.

(3) ابن عاشور: أعلام الفكر السامي 13.

(4) معالم 1:27.

الدعوة ومكان الهداية والرجوع إلى الحقّ اليقين.

وهي الخطّة التي بدأها الصحابي الجليل رويفع بن ثابت الأنصاري فقد أسّس مسجد الأنصار ويشير لهذا المسجد صاحب المعالم فيقول: أولها في الفضل والوضع[1]. وتأسيسه يرجع لسنة سبع وأربعين هـ أي قبل أن تخطّط القيروان ثمّ أسس التابعي أحد أفراد الفقهاء العشرة مسجد الزيتونة سنة ثلاث وتسعين وكان أهل القيروان يجتمعون إذا كان بجامع عقبة بناء أو أشغال[2] كما أنشأ القاضي عبدالله بن المغيرة رباط بقصر المغيرة وقرية عرفت بقرية المغيريين[٥]

وخطّة تأسيس المساجد في الحضارة الإسلامية هي خطّة القصد منها استحداث مركز القرار الديني الذي يرتبط به الفرد أشدّ الارتباط ولهذا كلّ من حاول مقاومة الإسلام عبر عصور التاريخ أغلق المساجد قبل كلّ شيء حتى يتمه القرار الديني وتضمحلّ مستنداته.

والحقيقة أن هذه البعثة الرابعة هى أكثر البعثات ترسيخاً للإسلام وتعميماً لانتشاره على أثرها تواصل المدد الديني الذي شارك فيه البربر كذلك بالتحوّل للبلاد المشرقية قصد التوسّع في الأخذ عن أقطاب العلم والفقه في الحواضر الإسلامية.

---

(1) معالم 1:27.

(2) المالكي 1.